

الأمراض التي تمنع من قبول الحق والانقياد له

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضِلَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم

((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)) آل عمران 102

((يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً

وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)) النساء: 1.

((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)) الأحزاب: 70-71.

أما بعد:

فإنَّ أصدقَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وخيرَ الهديِ هديُّ محمدٍ، وشرُّ الأمورِ محدثاتها، وكلُّ محدثةٍ بدعة، وكلُّ بدعةٍ ضلالة، وكلُّ ضلالةٍ في النار.

تنبيه لا بد منه:

لقد قرأتُ كتابَ الأخِ الفاضلِ حمدِ العثمانِ (الصوارف عن الحق)، وألفته جزءً متيناً في بابه، شيقاً في تنسيقه، ورأيت أن بعضَ فصوله تحتاج إلى نشرٍ على نطاقٍ واسعٍ لحاجة المسلمين إليها، فمن هذا الباب عزمت على إيصال هذه الخير إلى ناشدي الحق من أبناء الأمة مع شيء من التحرير والزيادة والشرح، عسى أن يجدوا فيها ما يعينهم على اجتناب العلل المانعة من قبول الحق وما أكثرها في هذه الأزمنة، وقد ألقيت بعض هذه الفصول على شكل محاضرة في بعض المدن الجزائرية، والله من وراء القصد وهو الهادي إلى السبيل القويم.

مقدمة مهمة نعمة سلامة الفطرة:

إنَّ الله تعالى خلق الخلق على الفطرة السليمة، وهي الحنفية المتظمنة لكامل حبه والخضوع له وكامل طاعته وحده دون غيره، وهذا من الحق الذي خلقت له، كما قال جلَّ جلاله: (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر

الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) الروم 30

قال الشيخ السَّعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية: (فإن جميع أحكام الشرع الظاهرة والباطنة قد وضع الله في

قلوب الخلق كلهم الميل إليها، فوضع في قلوبهم محبة الحق وإيثار الحق، وهذا حقيقة الفطرة، ومن خرج عن هذا

الأصل فلعارض عرض لفطرته أفسدها...)

وأخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما بسندهما إلى أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (كل مولود يولد على الفطرة..)، راجع شرح ابن قيم لهذا الحديث في كتابه شفاء العليل (775/2) تحقيق عمر الحفيان، ط العبيكان.

وعن عياض بن حمار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن ربي علمني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في هذا اليوم، كل مال نحلته عبادي حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإني أتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم) رواه أحمد ومسلم في صحيحه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ردا على ابن سينا وأضرابه من الجهمية في درء التعارض العقل والنقل (62/5) ط محمد رشاد سالم): (فإن الله تعالى نصب على الحق الأدلة والأعلام الفارقة بين الحق والنور، وبين الباطل والظلام، وجعل فطر عباده مستعدة لإدراك الحقائق ومعرفتها، ولولا ما في القلوب من الاستعداد لمعرفة الحقائق، لم يكن النظر والاستدلال ولا الخطاب والكلام، كما أنه سبحانه جعل الأبدان مستعدة للاغتذاء بالطعام والشراب، ولولا ذلك لما أمكن تغذيتها وتربيتها، وكما أن في الأبدان قوة تفرق بين الغذاء الملائم والمنافي، ففي القلوب قوة تفرق بين الحق والباطل أعظم من ذلك)

وقال رحمه الله في الدرء (67/6): (وفطر العباد مجبولة على محبته، لكن منهم من فسدت فطرته) وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى (338/16): (فالعلم بالحق يدعو صاحبه إلى اتباعه، فإن الحق محبوب في الفطرة، وهو أحب إليها، وأجل فيها، وألذ عندها من الباطل الذي لا حقيقة له، فإن الفطرة لا تحب ذلك.

وإن الفطرة السليمة، ولذة الانقياد له يزيدها الشرع تأييدا وقوة، كما قال الله تعالى في سورة هود [17]، ((أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده))، قال الإمام ابن كثير في تفسير آية سورة هود: (وذلك أن المؤمن عنده من الفطرة ما يشهد للشريعة من حيث الجملة، والتفاصيل تؤخذ من الشريعة، والفطرة تصدقها وتؤمن بها)

وقال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية: ((أفمن كان على بينة من ربه)) بالوحي الذي أنزل الله فيه المسائل المهمة، ودلائلها الظاهرة، فيتيقن تلك البينة، (ويتلوه)؛ أي: يتلو هذه البينة والبرهان برهان آخر، (شاهد منه): وهو شاهد الفطرة المستقيمة والعقل الصحيح....

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى (146/10): (ولا بد لهذه الفطرة والخلقة وهي صحة الخلقة من قوت وغذاء يمدّها بنظير ما فيها مما فطرت عليه علما وعملا؛ ولهذا كان تمام الدين بالفطرة المكتملة بالشريعة المترلة

وقال ابن قيم رحمه الله في مفتاح دار السعادة (ص423): (... فأولياؤه وخاصته وحزبه لما شهدت عقولهم وفطرهم أنه أهل أن يعبد وإن لم يرسل إليهم رسولا ولم ينزل عليهم كتابا ولو لم يخلق جنة أو نارا، علموا أنه لا

شيء في العقول والفطر أحسن من عبادته، ولا أقبح من الإعراض عنه، وجاءت الرسل وأنزلت الكتب لتقرير ما استودع سبحانه في الفطر والعقول من ذلك وتكميله وتفضيله وزيادته حسنا إلى حسنه، فاتفقت شريعته وفطرته وتطابقا، وتوافقا وظهر أهما من مشكاة واحدة، فعبدوه وأحبوه ومجدوه وحمدوه بداعي الفطرة وداعي الشرع وداعي العقل)....

فإن الواجب على من أراد لنفسه السلامة من كل داء الحفاظ على سلامة فطرته التي هي الشاهد على البيئة التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم، والحذر كل الحذر من الأسباب التي تصده عن قبول الحق والانقياد له، فإن العبد إذا بقي مطبوعا على قصد الحق فإنه سيؤثره على غيره من الهواجس البشرية التي لا دليل يدل على صدقها. قال أبو محمد بن حزم رحمه الله في جزئه مداواة النفوس ص 31 : (أفضل نعم الله على العبد أن يطبعه على العدل وحبه، وعلى الحق وإيثاره)، وقال ابن قيم الجوزية رحمه الله في الجواب الكافي ص 139 : (فإن الكمال الإنساني مداره على أصليين: معرفة الحق من الباطل، وإيثاره عليه، وما تفاوت منازل الخلق عند الله تعالى في الدنيا والآخرة إلا بقدر تفاوت منازلهم في هذين الأمرين، وهما اللذان أثنى الله سبحانه على أنبيائه بهما في قوله تعالى: ((واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار))، فالأيدي: القوة في تنفيذ الحق، والأبصار: البصائر في الدين، فوصفهم بكمال إدراك الحق، وكمال تنفيذه، ولقد لاحظنا كثيرا من الشباب كانوا على فطرة سليمة، وطبع قابل لحمل الحق ونصرتهم، ولكن حين خالطوا أهل الشبهات والهواجس فسد طبعهم، وتغير مزاجهم، وصاروا كالشاة العائرة يتململون بين الحق والباطل، وأنا أعرف كثيرا من شباب بعضهم يسكن في الإقليم الذي أسكنه، ففي الأمس القريب كانت همهم مشرئبة للأخذ عن أهل السنة، وأنفسهم طيبة حيال العلماء كالشيخ ربيع، والشيخ عبيد الله الجابري، والشيخ النجمي، والشيخ زيد وباقي إخوانهم وتلامذتهم، ويوالون كل سلفي ينصر الحق، ولكن حين بلوا ببعض من يدعي العلم من المتلونين والمدلسين، والذين كل يوم هم في شأن، ومن الفينة إلى الأخرى يغمزون في علماء الأمة بعبارات خفية وسامة، فسد طبع الشباب، وقلست أنفسهم عن طلب الحق، وتغيرت فطرتهم، وحينها صرنا في نظرهم ومشايخنا أسوأ من الصوفية القبورية، وأردى من أساطين الاعتزال، وأوحش من رؤوس الخوارج الضلال وباقي الفرق الضالة، بل نراهم يجالسون الحزبيين والفساق وكل بطل، وإذا مر بهم أخوهم ممن يوالي علماء الحديث كسروا في وجهه وأطلقوا عبارات الازدراء في حقه، ويجهدون أنفسهم في جمع جمل أهل الباطل والأهواء في أهل الحق، بل كأنهم حقنوا بمصل الحقد على أهل السنة، وجندوا لمحاربتنا والخذش في سلفيتنا بالأباطيل والضلالات. وكذلك أعرف شبابا كانوا يحضرون دروسنا، ويستفيدون منها، ولكن حين ركنوا إلى مجالسة المآربة، وأطرقوا سمعهم إلى شبهاتهم، وصاروا يخالطون الحاقدين على أهل الحديث، انقلبوا على أعقابهم، ونسوا الفضل الذي كان بينهم وبين إخوانهم من أهل الحديث، وفسدت فطرتهم وساء حالهم، والله العاصم من إخوان السوء.

إن الشباب إذا ارتوتوا من العلم الصافي المغذي للفطرة السليمة، والمأخوذ من مشكاة النبوة على فهم السلف

الأخيار، تهذب سلوكهم للسير على طريق العبودية واتضح حالهم للموالي والمعادي، وأمارة ذلك التأدب بآداب الإسلام، والوقوف مع الحق وتحكيمه ظاهرا وباطنا، والمسير معه حيث سار بهم، والاعتدال والاتزان في الأقوال والأفعال والأحوال، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في القواعد النورانية (ص49 ط دار الفتح الشارقة): (فمتابعة الآثار فيها الاعتدال والاتلاف والتوسط الذي هو أفضل الأمور)، وأما والعياذ بالله إذا كان حال الشباب الخلط في التلقي، والتغذي بكل ما يجدونه من خبيث أو جيد، والاحتكاك بالمعاني والأجرب، فإن الأمر سيؤول بهم إلى فساد الفطرة والحال والطبع، والوقوع في الكدر، والاتصاف بالتلون، وفقدان الصفاء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الاقتضاء (485/1 ط الرشد) بعد ما بيّن خطورة التشبه بالجرمين في أحوالهم وأعيادهم: (... و الشرائع هي غذاء القلوب وقوتها كما قال ابن مسعود رضي الله عنه ويرويه مرفوعا ((إن كل آدب يجب أن تؤتى مأدبته وإنّ مأدبة الله هي القرآن)) [والأثر فيه مقال] ومن شأن الجسد إذا كان جائعا فأخذ من الطعام حاجته استغنى عن طعام آخر، حتى لا يأكله إن أكل منه إلا بكراهة وتجشم، وربما ضره أكله، أو لم ينتفع به، ولم يكن هو المغذي له الذي يقيم بدنه، فالعبد إذا أخذ من غير الأعمال المشروعة بعض حاجته قلّت رغبته في المشروع وانتفاعه به، بقدر ما اعتاض من غيره، بخلاف من صرف همته وهيمته إلى المشروع، فإنه تعظم محبته له، ومنفعته به، ويتم دينه، ويكمل إسلامه، ولذا تجد من أكثر سماع القصائد لطلب صلاح قلبه تنقص رغبته في سماع القرآن، حتى ربما كرهه، ومن كثر من السفر إلى زيارات المشاهد ونحوها لا يبقى لحج البيت الحرام في قلبه من المحبة والتعظيم ما يكون في قلب من وسعته السنة، ومن أدمن على أخذ الحكمة والآداب من كلام حكماء فارس والروم، لا يبقى لحكمة الإسلام وآدابه في قلبه ذاك الموقع، ومن أدمن قصص الملوك وسيرهم لا يبقى لقصص الأنبياء وسيرهم في قلبه الاهتمام ونظير هذا كثير)) اهـ

وقال رحمه الله في درء التعارض (20/1) بعد ما بين أن بيان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يتم إلا بدفع المعارض العقلي ((فإن الغذاء لا ينفعه- أي المريض - مع وجود الأخلاط الفاسدة التي تفسد الغذاء...)) قلت: إن كل طالب علم اعتاد مجالسة أهل الباطل والاحتكاك بهم، والاختلاط بالعوام على الدوام مع مجاراتهم على سلوكهم النازل، والخوف من الرد على المنحرفين لكسب جانب من أتباعهم وأنصارهم، والاعتداد بالنفس ورفعها إلى مقام المرجعية الشرعية مع خوائها والأخلاط التي تحملها، يفسد فطرته ويولّد فيه التلون والكدر والتنقل من حال إلى حال والله المستعان.

****العلة الأولى التي تمنع من قبول الحق والانقياد له****

الجهل بالحق داء عظيم يمنع من قبوله.

وكتبه أبو عبد الباري عبد الحميد احمد العربي الجزائري الجزائري